2011 09 21 -0001-2

السفير جريدة السفير 2011© www.assafir.com

هذا الأسبوع
تاريخ العدد ٢٠١١/٠٩/٢١ **العدد** ١١٩٩٢

عن «علي» ومفقودين آخرين

بلال عبود

لا تسقط المأساة بمرور الزمن، بل إن الأيام تزيد في لوعتها وتعمّق في جراحها وتتحول ذكراها في كل عام إلى لحظة ينطوي فيها الزمن على حساب المكان، ليسترجع أسماء الناس. فالمكان هو ذاته، أما الذكريات فيرسمها الناس والوقت.
ربما يكون الوقت أو التوقيت هو المتهم الأساسي في مأساة عائلة علي ع. الشاب الذي ترك منزل أهله إثر خلاف مع والده قبل يومين من وقوع المجزرة.
كان علي يقف قرب منزل أهله في منطقة الأوزاعي، يوم ١٤ أيلول ١٩٨٢، عندما وصل والده إلى المنزل. حينها، حصل خلاف بين الشاب الذي يبلغ العشرين من العمر والوالد. وسبب الخلاف، كالعادة، تصرفات يراها الأب طائشة ومضيعة للوقت، علما أن الشاب سبق وترك المدرسة نتيجة الحرب والتهجير من تل الزعتر إلى الأوزاعي.
قرّر علي في ذلك اليوم أن يغادر المنزل لـ«يحرد» في منزل احد أصدقائه في صبرا. وهو الأمر الذي حصل قبل ذلك أكثر من مرّة، حيث كانت والدته تعيد ابنها بعد يوم أو يومين إلى المنزل، وتصالحه مع الأب. لكن هذه المرّة، كان لجيش الاحتلال مع بعض الميليشيات اللبنانية، مخطط آخر للأيام التي تلت. مخطط انتهى بمجزرة صبرا وشاتيلا.
بعد «هرب» علي لم تذهب الوالدة وحدها لتعيد ابنها إلى البيت. رافقها الأب وشعوره بالذنب.
في الأيام الأولى التي تلت المذبحة، دخل مع الوالدين كل من كان له قريب أو صديق في المخيم، ليبحث بين ركامه عن جثمان يجمع أعضاءه التي قطعت بوحشية ليجهّزه للدفن، أو عن أثر يقول انه «ما زال على قيد الحياة».
سار والد علي ووالدته بين البيوت المدمرة وروائح الموت المنبعثة من كل جانب حتى وصلوا إلى منزل صديقه. بحثوا بين جثث أهل الصديق الذين توفوا جميعا، لكن لم يجدوا أثراً لابنهم. كان ذلك أخف وطأة من احتمال مشاهدة جثّة ابنهم بين تلك الأجساد الممزقة.
استمر الوالدان في البحث عن ابنهم بين الجثث المنتشرة في أرجاء المخيم، ولكن من دون أثر، فعدد القتلى كان كبيرا وحرارة أيلول في ذلك العام أذابت معالم الأجساد المقطّعة!
جمعت الجثث ودفنت في حفرتين كبيرتين، في ما يعرف اليوم بمقبرة شهداء صبرا وشاتيلا التي ضمت شهداء فلسطينيين ولبنانيين ومن جنسيات أخرى كان أصحابها يعيشون في المخيم.
بدأت رحلة أهل علي في البحث عن شاب توقف عمره عند العشرين سنة. عشرون لا تزيد أبدا، وكأن الزمن توقف يوم خروجه من البيت.
وفي العام ١٩٨٥، جاء أحد الناجين من أيدي الميليشيات اللبنانية التي شاركت في مجزرة صبرا وشاتيلا، ليخبر أهل علي انه رآه في مرفأ بيروت في أواخر العام ١٩٨٢، يصعد مع مجموعة كبيرة من الأسرى إلى سفينة متجهة إلى فلسطين المحتلة. الرجل الذي نجا من الصعود إلى تلك السفينة بسبب سوء حالته الصحية، بقي في سجون المجموعات اللبنانية الموالية لإسرائيل، وقد تعرف على صورة علي التي حملتها والدته مع أمهات المفقودين في إحدى المناسبات. مرّة جديدة، عاد الأمل إلى قلوب العائلة، فابنهم ربما يكون على قيد الحياة.
لكن «خبرية» الرجل لم تقتصر على ذلك. فهؤلاء الأسرى كان يتم اختيارهم لاستخدامهم في تجارب طبية أو للاستفادة من أعضائهم في عمليات جراحية تجري في الكيان الصهيوني، وفق ما قاله لهم الرجل نقلا عن سجّانه اللبناني.
بعد الحرب، لم تفتح الدولة ملف الأسرى والمفقودين، حتى لا يحرج أحد من أمراء الحرب «زملاءه». هكذا انضمت قضية علي إلى قضايا المفقودين المجهولي المصير.
في كل يوم، كانت المأساة تكبر، وتحوّل الشاب إلى صورة تحملها والدته الباحثة عن مصير ابنها. حاول كثيرون إقناعها بأن ابنها توفي ودفن في صبرا، ونصحوا والده بأن يقرأ لروحه الفاتحة لترتاح. لكن الوالد الذي توفي في العام ٢٠٠٠ جعل وصيته لأبنائه أن يستمروا في البحث عن أخيهم.
في تموز من العام ٢٠٠٨، ومع إتمام صفقة تبادل الأسرى بين حزب الله والعدو الإسرائيلي، طلب المعنيون بالملف من أخوة علي أن يجروا فحصا للـ«دي.أن.أي»، لمطابقته برفات بعض الشهداء. إلا أن النتيجة كانت سلبية.
في السنة التالية، وفي يوم ذكرى المجزرة، ذهبت والدة علي وبكت على ابنها في مقبرة شهداء المجزرة في صبرا. قرأت له الفاتحة، وتوفيت بعد ذلك بشهر، وكأنها أرادت وضع نهاية لرحلة البحث.
لو كان علي على قيد الحياة لبلغ عمره ٤٩ عاما. لكنه وكثيرين غيره يظلّون اليوم شبابا في صورهم التي تحملها الأمهات، فيما أعمارهم ضاعت تحت عنوان «مفقودين».
بلال عبود